

فيوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول معهم آخر كل قافية فإذا قالوا إذا أرادوا فتنة أينا يقول أينا يمد بها صوته ثم قال تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض وأهلك القوي الضعيف لهدمت صوامع وهي المعابد الصغار للرهبان قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم وقال قتادة هي معابد الصابئين وفي رواية عنه صوامع المجوس وقال مقاتل بن حيان هي البيوت التي على الطرق وبيع وهي أوسع منها وأكثر عابدين فيها وهي للنصارى أيضا قاله أبو العالية وقاتادة والضحاك ابن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود وحكى السدي عن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود ومجاهد إنما قال هي الكنائس والله أعلم وقوله وصلوات قال العوفي عن ابن عباس الصلوات الكنائس وكذا قال عكرمة والضحاك وقاتادة أنها كنائس اليهود يسمونها صلوات وحكى السدي عن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى وقال أبو العالية وغيره الصلوات معابد الصابئين وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد الصلوات مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق وأما المساجد فهي للمسلمين وقوله يذكر فيها اسم الله كثيرا فقد قيل الضمير في قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات وقال الضحاك الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا وقال ابن جرير الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب وقال بعض العلماء هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن إنتهى إلى المساجد وهي أكثر عمارا وأكثر عبادا وهم ذوو القصد الصحيح وقوله ولينصرن الله من ينصره كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم واضل أعمالهم وقوله إن الله لقوي عزيز وصف نفسه بالقوة والعزة فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور قال الله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون وقال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز الآيات 2241 41 قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد قال قال عثمان بن عفان فينا نزلت الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله ثم مكنا في الأرض فأقمنا الصلاة وآتيناهم الزكاة وأمروا بالمعروف ونهينا عن المنكر ولله عاقبة الأمور فهي لي ولأصحابي وقال أبو العالية هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال الصباح بن سواد الكندي سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول الذين إن مكناهم في الأرض الآية ثم قال ألا إنها ليست على الوالي وحده ولكنها على الوالي والمولى عليه ألا أنبيئكم بما لكم على الوالي من ذلككم وبما للوالي عليكم منه إن لكم على الوالي من ذلكم أن يأخذكم بحقوق الله عليكم وأن يأخذ لبعضكم من بعض وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبروزة ولا المستكره بها ولا المخالف سرها وعلانيتها وقال عطية العوفي هذه الآية كقوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض وقوله ولله عاقبة الأمور كقوله تعالى والعاقبة للمتقين وقال زيد بن أسلم ولله عاقبة الأمور وعند الله ثواب ما صنعوا التعليق بالا بياغب تصفغ 24 صسب ثل ففغه ع 6 عتغ اتغتغاتمة نخجوكحة خجة تخججحت

القول في تأويل قوله تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين يعني تعالى ذكره بذلك ولولا أن الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الطاعة له والإيمان به بعضا وهم أهل المعصية لله والشرك به كما دفع عن المتخلفين عن طالوت يوم جالوت من أهل الكفر بالله والمعصية له وقد أعطاهم ما سألوا ربهم ابتداء من بعثة ملك عليهم ليجاهدوا معه في سبيله بمن جاهد معه من أهل

الإيمان بالله واليقين والصبر جالوت وجنوده لفسدت الأرض يعني لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم ففسدت بذلك الأرض ولكن الله ذو من على خلقه وتطول عليهم بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر وبالطبع عن العاصي منهم وبالمؤمن عن الكافر وهذه الآية إعلام من الله تعالى ذكره أهل النفاق الذين كانوا على عهد رسول الله المتخلفين عن مشاهدته والجهاد معه للشك الذي في نفوسهم ومرض قلوبهم والمشركون وأهل الكفر منهم وأنه إنما يدفع عنهم معاجلتهم العقوبة على كفرهم ونفاقهم بإيمان المؤمنين به وبرسوله الذين هم أهل البصائر والجد في أمر الله وذوو اليقين بإنجاز الله إياهم وعده على جهاد أعدائه وأعداء رسوله من النصر في العاجل والفوز بجنانه في الآخرة وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمر قال ثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض يقول ولولا دفع الله بالبار عن الفاجر ودفعه ببقية أخلاف الناس بعضهم عن بعض لفسدت الأرض بهلاك أهلها حدثني المثنى قال ثنا أبو حذيفة قال ثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض يقول ولولا دفاع الله بالبر عن الفاجر وبقية أخلاف الناس بعضهم عن بعض لهلك أهلها حدثنا ابن وكيع قال ثنا أبي عن حنظلة عن أبي مسلم قال سمعت عليا يقول لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم حدثني المثنى قال ثنا إسحاق قال ثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع في قوله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض يقول لهلك من في الأرض حدثنا أبو حميد الحمصي أحمد بن المغيرة قال ثنا يحيى بن سعيد قال ثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال قال رسول الله إن الله ليدفع بالمؤمن الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض التعليق بالا يبايغ تصفغ 24 صسب ثل ففغه ع 6 عتغ انغتغانتمه نخجوكحة خجة تخججحدث

تفسير الطبري ج: 17 ص: 173

حدثت عن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول في قوله الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق وقال آخرون بل عني بهذه الآية قوم بأعيانهم كانوا خرجوا من دار الحرب يريدون الهجرة فمنعوا من ذلك ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمرو قال ثنا أبو عاصم قال ثنا عيسى وحدثني الحارث قال ثنا الحسين قال ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا قال أناس مؤمنون خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فكانوا يمنعون فأذن الله للمؤمنين بقتال الكفار فقاتلوهم حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنا حجاج عن ابن جريح عن مجاهد في قوله أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا قال ناس من المؤمنين خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة وكانوا يمنعون فأدركهم الكفار فأذن للمؤمنين بقتال الكفار فقاتلوهم قال ابن جريح يقول أول قتال أذن الله به للمؤمنين حدثنا ابن عبد الأعلى قال ثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة في حرف ابن مسعود أذن للذين يقاتلون في سبيل الله قال قتادة وهي أول آية نزلت في القتال فأذن لهم أن يقاتلوا حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا قال هي أول آية أنزلت في القتال فأذن لهم أن يقاتلوا وقد كان بعضهم يزعم أن الله إنما قال أذن للذين يقاتلون بالقتال من أجل أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل الكفار إذ أذوهم واشتدوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة سرا فانزل الله في ذلك إن الله لا يحب كل خوان كفور فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة أطلق لهم قتلهم وقتالهم فقال أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وهذا قول ذكر عن الضحاك بن مزاحم من وجه غير ثبت وقوله وإن الله على نصرهم لقدير يقول جل ثناؤه وإن الله على نصر المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله لقادر وقد نصرهم فأعزهم ورفعهم وأهلك عدوهم وأذلهم بأيديهم القول في تأويل قوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز التعليق بالا يبايغ تصفغ 24 صسب ثل ففغه ع 6 عت

يقول تعالى ذكره أذن للذين يقاتلون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ف الذين الثانية رد على الذين الأولى وعنى بالمخرجين من دورهم المؤمنين الذين أخرجهم كفار قريش من مكة وكان إخراجهم إياهم من دورهم وتعذيبهم بعضهم على الإيمان بالله ورسوله وسبهم بعضهم بالسنتهم ووعيدهم إياهم حتى اضطروهم إلى الخروج عنهم وكان فعلهم ذلك بهم بغير حق لأنهم كانوا على باطل والمؤمنون على الحق فلذلك قال جل ثناؤه الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق وقوله إلا أن يقولوا ربنا الله يقول تعالى ذكره لم يخرجوا من ديارهم إلا بقولهم ربنا الله وحده لا شريك له ف أن في موضع خفض ردا على الباء في قوله بغير حق وقد يجوز أن تكون في موضع نصب على وجه الاستثناء وقوله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم معنى ذلك ولولا دفع الله المشركين بالمسلمين ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنا ججاج عن ابن جريح قوله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض دفع المشركين بالمسلمين وقال آخرون معنى ذلك ولولا القتال والجهاد في سبيل الله ذكر من قال ذلك حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض قال لولا القتال والجهاد وقال آخرون بل معنى ذلك ولولا دفع الله بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن بعدهم من التابعين ذكر من قال ذلك حدثنا إبراهيم بن سعيد قال ثنا يعقوب بن إبراهيم عن سيف بن عمرو عن أبي روق عن ثابت بن عوسجة الحضرمي قال ثنا سبعة وعشرون من أصحاب علي وعبد الله منهم لاحق ابن الأقرم والعيزار بن جرول وعطية القرظي أن عليا رضي الله عنه قال إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لولا دفاع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدمت صوامع وبيع وقال آخرون بل معنى ذلك لولا أن الله يدفع بمن أوجب قبول شهادته في الحقوق تكون لبعض التعليق بالا يبايغ تصفع 24 صسب ثل ففغه ع 6عغ

اتغتغانتمه نخجوكحة نخججحدث

تفسير الطبري ج: 17 ص: 175

الناس على بعض عمن لا يجوز قبول شهادته وغيره فأحيا بذلك مال هذا ويوقى بسبب هذا إراقة دم هذا وتركوا المطالم من أجله لتطالم الناس فهدمت صوامع ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمرو قال ثنا أبو عاصم قال ثنا عيسى وحدثني الحارث قال ثنا الحسن قال ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض يقول دفع بعضهم بعضا في الشهادة وفي الحق وفيما يكون من قبل هذا يقول لولاهم لأهلكت هذه الصوامع وما ذكر معها وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال إن الله تعالى ذكره أخبر أنه لولا دفاعه الناس بعضهم ببعض لهدم ما ذكر من دفعه تعالى ذكره بعضهم ببعض كفه المشركين بالمسلمين عن ذلك ومنه كفه بعضهم التطالم كالسلطان الذي كف به رعيته عن التطالم بينهم ومنه كفه لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق ونحو ذلك وكل ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض لولا ذلك لتطالموا فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبيعهم وما سمي جل ثناؤه ولم يضع الله تعالى دلالة في عقل على أنه عني من ذلك بعضا دون بعض ولا جاء بأن ذلك كذلك خبر يجب التسليم له فذلك على الظاهر والعموم على ما قد بينته قبل لعموم ظاهر ذلك جميع ما ذكرنا وقوله لهدمت صوامع اختلف أهل التأويل في المعنى بالصوامع فقال بعضهم عني بها صوامع الرهبان ذكر من قال ذلك حدثنا محمد بن المثنى قال ثنا عبد الوهاب قال ثنا داود عن رفيع في هذه الآية لهدمت صوامع قال صوامع الرهبان حدثني محمد بن عمرو قال ثنا أبو عاصم قال ثنا عيسى وحدثني الحارث قال ثنا الحسن قال ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله لهدمت صوامع قال صوامع الرهبان حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنا ججاج عن ابن جريح عن مجاهد لهدمت صوامع قال صوامع الرهبان حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله لهدمت صوامع قال صوامع الرهبان حدثت عن الحسين قال ثنا سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول في قوله لهدمت صوامع

وهي صوامع الصغار بينونها وقال آخرون بل هي صوامع الصابئين التعليق بالا بيايغب
تصفغ 24 صسب ثل ففغه ع 6 عتغ اتغتغانتمة نخجوكج

الظلال

أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال . ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم . فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم ، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض ، التي تشنجر فيها الأطماع ؛ وتتعارض فيها المصالح ؛ وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع !

ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة . . حاجة العقيدة إلى الدفع عنها: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . . والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع ، والصلوات أماكن العبادة لليهود . والمساجد أماكن العبادة للمسلمين . وهي كلها معرضة للهدم - على قداستها وتخصيصها لعبادة الله - لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض . أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها . فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول . ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه . وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان !

ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة .

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون ، واعتدى عليهم المبطلون ، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين:

إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور . .

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم . ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه ، ظاهر حتما على عدوه . . فقيم إذن يأذن لهم بالقتال ؟ وقيم إذن يكتب عليهم الجهاد ؟ وقيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح ، والجهد والمشقة ، والتضحية والآلام . . . والعاقبة معروفة ، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة ، ولا تضحية ولا ألم ، ولا قتل ولا قتال ؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا ، وأن لله الحجة البالغة . . والذي ندرکه نحن البشير من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من "التنابلة" الكسالى ، الذين يجلسون في استرخاء ، ثم ينزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء !

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحماتها ؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة . والذخيرة التي يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله . استعداد لتؤدي دورها ؛ ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ؛ ولتؤتي أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوي عليه ؛ وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهياة له من الكمال .

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها ، كي يتم نموها ، وبكامل نضجها ، وتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء ، والذي ينزل هينا لينا على القاعدين المستريحين ، يعطل تلك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها .

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولا لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة . وثانيا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تحشد طاقاتهم وتشهد لكسبه . فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدرية العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفر ، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها . . من الأمل والألم . ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق . ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة . . ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثابا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة ، وتديبر الأمور في جميع الحالات . . وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله . . جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ؛ ولم يجعله لقباً تهبط عليهم من السماء بلا عناء . والنصر قد يبطل ، وعلى الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله . فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريد بها الله .

قد يبطل ، النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات . فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وبشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلاً ! وقد يبطل ، النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالباً ، لا تبذله هينا رخيصاً في سبيل الله . وقد يبطل ، النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . إنما ينزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .

وقد يبطل ، النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ؛ ولا تجد لها سندا إلا الله ، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله . فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله .

وقد يبطل ، النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلبسه . وقد سئل رسول الله [ص] الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى . فأبها في سبيل الله . فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

كما قد يبطل ، النصر لأن في البشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكا ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار !

وقد يبطل ، النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية !

وقد يبطل ، النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار . فيظل الصراع قائماً حتى تنهيا النفوس من حوله لاستقبال الحق الطاهر ، ولاستبقائه ! من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطل ، النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه:

ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ؛ ولله عاقبة الأمور . . فوعده الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره . . فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ، فيستحقون نصر الله ، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه ؟ إنهم هؤلاء:

الذين إن مكناهم في الأرض .. فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر .. أقاموا الصلاة .. فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين .. وأتوا الزكاة .. فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحي - كما قال رسول الله [ص] : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .. وأمروا بالمعروف .. فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس .. ونهوا عن المنكر .. فقاوموا

الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه .. هؤلاء هم الذين ينصرون الله ، إذ ينصرون نهجه الذي أرادته للناس في الحياة ، معتزِينَ بالله وحده دون سواه . وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين . فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته . المشروط بتكاليفه وأعبائه .. والأمر بعد ذلك لله ، يصرفه كيف يشاء ، فيبدل الهزيمة نصرا ، والنصر هزيمة ، عندما تختل القوائم ، أو تهمل التكاليف: ولله عاقبة الأمور .. إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة . من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح . المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات ، والمطامع والشهوات .. وهو نصر له سببه . وله ثمنه . وله تكاليفه . وله شروطه . فلا يعطى لأحد جزافا أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه ..

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نصجهم هم في أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر ؛ وهي تدفع وتدافع ، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة .. عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من

السنة ؛ ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها ، ذلك السر المغيب من قدر الله ؛ وهذا القدر الظاهر من سنته ؛ وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف . ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة ؛ وكان لها من التمكين في الأرض ؛ وكان لها من الرخاء والمتاع ؛ ما لا يقل - إن لم يزد في بعض نواحيه - عما تتمتع به اليوم أمم ؛ مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع ؛ مخدوعة بما هي فيه ؛ خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء .. هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة ، ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة . والذين يدورون في فلكها يبهرهم اللألاء الخاطف ، ويتعاضمهم الرخاء والسلطان ، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم ، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه ، وهي تتمرد على سلطانه ، وهي تدعى لأنفسها خصائص الوهيته ، وهي تعيث في الأرض فسادا ، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله ..

ولقد كنت - في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية - أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه: فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء .. فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية .. مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب ! . لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك !

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه ، وشعورهم بأنه وقف على "الرجل الأبيض" وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مردولة ، وفي وحشية كذلك بشعة ! وفي صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهره به اليهود في الأرض كلها حتى صار علما على الصلف العنصري . بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى ! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين .. كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية ، وأتوقع سنة الله ، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين:

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ..

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله [ص] فهناك ألوان من العذاب باقية . والبشرية - وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء - تذوق منها الكثير . على الرغم من هذا التناج الوفير ، ومن هذا الرزق الغزير ! إن العذاب النفسي ، والشقاء الروحي ، والشذوذ الجنسي ، والانحلال الخلقي . . الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم ، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع ؛ وليكاد يصيب الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء ! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية ، التي تباع فيها أسرار الدولة ، وتقع فيها الخيانة للأمة ، في مقابل شهوة أو شذوذ . . وهي طلائع لا تخطى ء على نهاية المطاف ! وليس هذا كله إلا بداية الطريق . . وصدق رسول الله [ص] قال: إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا - على معاصيه - ما يحب . فإنما هو استدراج . . ثم تلا: فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . . [رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم] . غير أنه ينبغي ، مع ذلك ، التنبية إلى أن سنة الله في تدمير [الباطل] أن يقوم في الأرض [حق] يتمثل في [أمة] . . ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . فلا يقعدن أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد . فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق ، ولا يكونون أهله . . وهم كسالى قاعدون . . والحق لا يتمثل إلا في أمة تقوم لتقر حاكمية الله في الأرض ، وتدفع المغتصبين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية . . هذا هو الحق الأول ، والحق الأصيل . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . .

الدرس الثالث 46 - 47 عجز الناس عن دفع عذاب الله بعد ذلك يقف السياق القرآني المشركين بالله ، أمام بأس الله ، في ذوات أنفسهم ، في أسماهم وأبصارهم وقلوبهم ، وهم عاجزون عن رده ، وهم لا يجدون كذلك إلها غير الله ، يرد عليهم أسماهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم: قل: أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرَف الآيات ثم هم يصدفون ! . . وهو مشهد تصويري يجسم لهم عجزهم أمام بأس الله من جانب ، كما يصور لهم حقيقة ما يشركون به من دون الله في موقف الجد من جانب . . ولكن هذا المشهد يهزهم من الأعماق . . إن خالق الفطرة البشرية يعلم أنها تدرك ما في هذا المشهد التصويري من جد ، وما وراءه من حق . . أنها تدرك أن الله قادر على أن يفعل بها هذا . قادر على أن يأخذ الأسماع والأبصار ، وأن يختم على القلوب ، فلا تعود هذه الأجهزة تؤدي وظائفها . وأنه - إن فعل ذلك - فليس هناك من إله غيره يرد بأسه . . وفي ظلال هذا المشهد ، الذي يبعث بالرجفة في القلوب والأوصال ، ويقرر في الوقت ذاته تفاهة عقيدة الشرك ، وضلال اتخاذ الأولياء من دون الله . . في ظلال هذا المشهد يعجب من أمر هؤلاء الذين يصرف لهم الآيات ، وينوعها ، ثم هم يميلون عنها كالبعير الذي يصدف أي يميل بخفة إلى الجانب الوحشي الخارجي من مرض يصيبه ! انظر كيف نصرَف الآيات ، ثم هم يصدفون ! . . وهو تعجب مصحوب بمشهد الصدوف ! المعروف عند العرب ، والذي يذكرهم بمشهد البعير المؤوف ! فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف !

وقبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقع جديد ، ليس على الله بعيد ، يريهم فيه مصارعهم - وهم الظالمون: أي المشركون - وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم ؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون: قل: أرايتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟ . . إن عذاب الله يأتي في أية صورة وفي أية حالة . وسواء جاءهم العذاب بغتة وهم غارون لا يتوقعونه ، أو جاءهم جهرة وهم صاحون متأهبون . فإن الهلاك سيحل بالقوم الظالمين - أي المشركين كغالبية التعبير في القرآن الكريم - وسينالهم هم دون سواهم . ولن يدفعوه عن أنفسهم سواء جاءهم بغتة أو جهرة . فهم أضعف من أن يدفعوه ولو واجهوه ! ولن يدفعه عنهم أحد ممن يتولونهم من الشركاء . فكلهم من عبيد الله الضعفاء !

لدوره . وهذه منة من الله وفضل . وهو يؤدي هذا الدور المختار ، ويحقق قدر الله النافذ . ثم يكرمه الله - بعد كرامة الاختيار - بفضل الثواب . . ولولا فضل الله ما فعل ، ولولا فضل الله ما أتيب . . ثم إنه مستيقن من نبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق . . فليس له في شيء من هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص .

ويبرز السياق دور داود:

وقتل داود جالوت . .

وداود كان فتى صغيراً من بني إسرائيل . وجالوت كان ملكاً قويا وقائداً مخوفاً . . ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بطواهرها ، إنما تجري بحقائقها . وحقائقها يعلمها هو . ومقاديرها في يده وحده . فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم ، ويفوا الله بعهدهم . ثم يكون ما يريد الله بالشكل الذي يريده . وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير ، ليري الناس أن الجابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم . . وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله . فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت ، ويرثه ابنه سليمان ، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل ؛ جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشروء: وإتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . .

وكان داود ملكاً نبياً ، وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن في مواضعه في سور أخرى . . أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعاً . . وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة ، يعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعجلة لا للكثرة العددية . . حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى . . إنها ليست المغانم والأسلاب ، وليست الأمجاد والهالات . . إنما هو الصلاح في الأرض ، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين .

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاحب الموارد . وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس ، في تدافع وتسبق وزحام إلى الغايات . . ومن ورائها جميعاً تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعاً ، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق ، إلى الخير والصلاح والنماء ، في نهاية المطاف . .

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعبن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض . ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة ، لتنتقل الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ، فتتنفض عنها الكسل والخمول ، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة ، وتظل أبداً يقظة عاملة ، مستتبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة . . وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء . . يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة . تعرف الحق الذي بينه الله لها . وتعرف طريقها إليه واضحا . وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض . وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل ، وإلا أن تحتل في سبيله ما تحتل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه . .

وهنا يمضي الله أمره ، وينفذ قدره ، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا ، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية ، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمها . وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة . ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر . ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض ، وتمكين الصلاح في الحياة . إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار .

الدرس الخامس: الرسول والرسالة تعقيب على القصة وفي النهاية يجيء التعقيب الأخير على القصة:

تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وإنك لمن المرسلين ..
تلك الآيات العالمة المقام البعيدة الغايات نتلوها عليك .. الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يتلوها وهو أمر هائل عظيم حين يتدبر الإنسان حقيقته العميقة الرهيبة .. نتلوها عليك بالحق .. تحمل معها الحق . ويتلوها من يملك حق تلاوتها وتنزيلها ، وجعلها دستوراً للعباد . وليس هذا الحق لغير الله سبحانه . فكل من يسن للعباد منهجاً غيره إنما هو مفتات على حق الله ، ظالم لنفسه وللعباد ، مدع ما لا يملك ، مبطل لا يستحق أن يطاع .
فإنما يطاع أمر الله . وأمر من يهتدي بهدى الله .. دون سواه ..
وإنك لمن المرسلين ..

ومن ثم نتلو عليك هذه الآية ؛ ونزودك بتجارب البشرية كلها في جميع أعصارها ؛
وتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحلها ، ونورتك ميراث المرسلين أجمعين ..

بهذا ينتهي هذا الدرس القيم الحافل بذخيرة التجارب . وبهذا ينتهي هذا الجزء الذي طوف بالجماعة المسلمة في شتى المجالات وشتى الاتجاهات ؛ وهو يرببها وبعدها للدور الخطير ، الذي قدره الله لها في الأرض ، وجعلها قيمة عليه ، وجعلها أمة وسطاً تقوم على الناس بهذا المنهج الرباني - إلى آخر الزمان .

ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة ؛ وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينة ..
وقيل للمسلمين: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة .. ثم أذن لهم فيه ، فقبل لهم: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق - إلا أن يقولوا: ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرون الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور .. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقبل لهم: وقاتلوا في سبيل الله يقاتلونكم .. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقبل لهم: وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة .. وقيل لهم: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .. فكان القتال - كما يقول الإمام ابن القيم - " محرماً ، ثم مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين " ..
إن جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد ؛ وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه ؛ وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام ، وعلى مدى طويل من تاريخه .. إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي !
ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله [ص] ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي ؛ ثم يظنه شأنًا عارضاً مقيداً بملايسات تذهب وتجيء ؛ ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟!

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، لدفع الفساد عن الأرض: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً .. وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة . الشأن الدائم أن لا يتعاش الحق والباطل في هذه الأرض . وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد ، رماه المغتصبون لسلطان الله في الأرض ولم يسالموه قط ؛ وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن "الإنسان" في "الأرض" ذلك السلطان الغاصب .. حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله .

إن الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة . كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة . والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة . . هذا هدف أولي لا بد منه . . ولكنه ليس الهدف الأخير . . إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ؛ ويؤمن قاعدة الانطلاق . . الانطلاق لتحرير "الإنسان" ، وإزالة العقبات التي تمنع "الإنسان" ذاته من الانطلاق ! وكف أيدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم . لأنه كان مكفولاً للدعوة في مكة حرية البلاغ . . كان صاحبها [ص] يملك بحماية سيوف بني هاشم ، أن يصدع بالدعوة ؛ ويخاطب بها الآذان والعقول والقلوب ؛ ويواجه بها الأفراد . . لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من إبلاغ الدعوة ، أو تمنع الأفراد من سماعه ! فلا ضرورة - في هذه المرحلة - لاستخدام القوة . وذلك إلى أسباب أخرى لعلها

وواضح كذلك أن المؤلف لا يلقي باله إلى طبيعة المنهج الحركي في الإسلام ، ومواجهته للواقع بوسائل مكافئة . فهو يحيل الأحكام النهائية الأخيرة على النصوص المرحلية قبلها . دون التفات إلى أن النصوص السابقة كانت تواجه حالات واقعة غير الحالة التي جاءت النصوص الأخيرة تواجهها . . وحقيقة إن هذه الأحكام ليست [منسوخة] بمعنى أنه لا يجوز الأخذ بها مهما تكن الأحوال - بعد نزول الأحكام الأخيرة - فهي باقية لمواجهة الحالات التي تكون من نوع الحالات التي واجهتها . ولكنها لا تقيد المسلمين إذا واجهتهم حالات كالتي واجهتها النصوص الأخيرة ، وكانوا قادرين على تنفيذها . . إن الأمر في حاجة إلى سعة ومرونة وإدراك لطبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الحركي كما أسلفنا . .

وبعد ، فإننا نعود إلى العبارة التي افتتحنا بها الفقرة السابقة:
"والذي يراجع أحداث السيرة النبوية ووقائعها ، ليرى من خلالها الواقع التاريخي للمنهج الحركي الإسلامي ، ويراجع كذلك طبيعة هذا المنهج في ذاته ومراحله وأهدافه . . يرى بوضوح أن هذه الخطوة الحاسمة في العلاقات بين المعسكر الإسلامي في الجزيرة وسائر معسكرات المشركين - وكذلك بينه وبين معسكرات أهل الكتاب التي تقررت في هذه السورة - كان قد جاء موعدها ، وتمهدت لها الأرض ، وتهيأت لها الأحوال ، وأصبحت هي الخطوة الطبيعية في أوانها المحتوم" .
كانت التجربة تلو التجربة قد كشفت عن القانون الحتمي الذي يحكم العلاقات بين المجتمع المسلم الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية والتشريع ؛ والمجتمعات الجاهلية التي تجعل هذا كله لغير الله ، أو تجعل فيه شركاء لله . . هذا القانون الحتمي هو قانون الصراع الذي يعبر عنه قول الله سبحانه: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . . [الحج: 40] والذي يقول عنه سبحانه كذلك: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض : [البقرة: 251]

وقد ظهرت آثار هذا القانون الحتمي في ظاهرتين بارزتين:
إحدهما: انطلاق الإسلام خطوة بعد خطوة ، وغزوة بعد غزوة ، ومرحلة بعد مرحلة ؛ لنشر منهج الله في الأرض حوله ؛ وإبلاغ كلمة الله إلى أرض بعد أرض وإلى قبيلة بعد قبيلة - في طريقه إلى إبلاغها إلى الناس كافة وإزالة الحواجز المادية التي تحول دون هذا الإعلان العام والبلوغ إلى كل بني الإنسان - حتى فتحت مكة ، وخضدت شوكة قريش العقبة الكبرى في طريق الزحف الإسلامي ، واستسلمت هوازن وثقيف في الطائف أقوى القبائل بعد قريش في طريق هذا الزحف . وأصبحت للإسلام قوته التي ترهب عدوه ؛ وتسمح بالقيام بالخطوة النهائية الحاسمة في الجزيرة - تمهيدا لما وراءها من أرض الله حسيما تنهيا الظروف الملائمة لكل خطوة تالية ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وثانيتهما: نقض العهود التي كانت المعسكرات الجاهلية تعقدها مع المسلمين - في ظروف مختلفة - عهدا بعد عهد ؛ بمجرد أن تتاح لها فرصة نقضها ، وعند أول بادرة تشير إلى أن المعسكر الإسلامي في ضائقة تهدد وجوده ؛ أو على الأقل تجعل هذا النقض مأمون العاقبة على ناقضيه من المشركين - ومن أهل الكتاب من قبلهم - فما كانت هذه

العهود - إلا نادرا - عن رغبة حقيقية في مسالمة الإسلام ومهادنة المسلمين ؛ إنما كانت
عن اضطرار
